الإسلام

ومكارم الأخلاق

بأقلام عشرة من علماء الإسلام

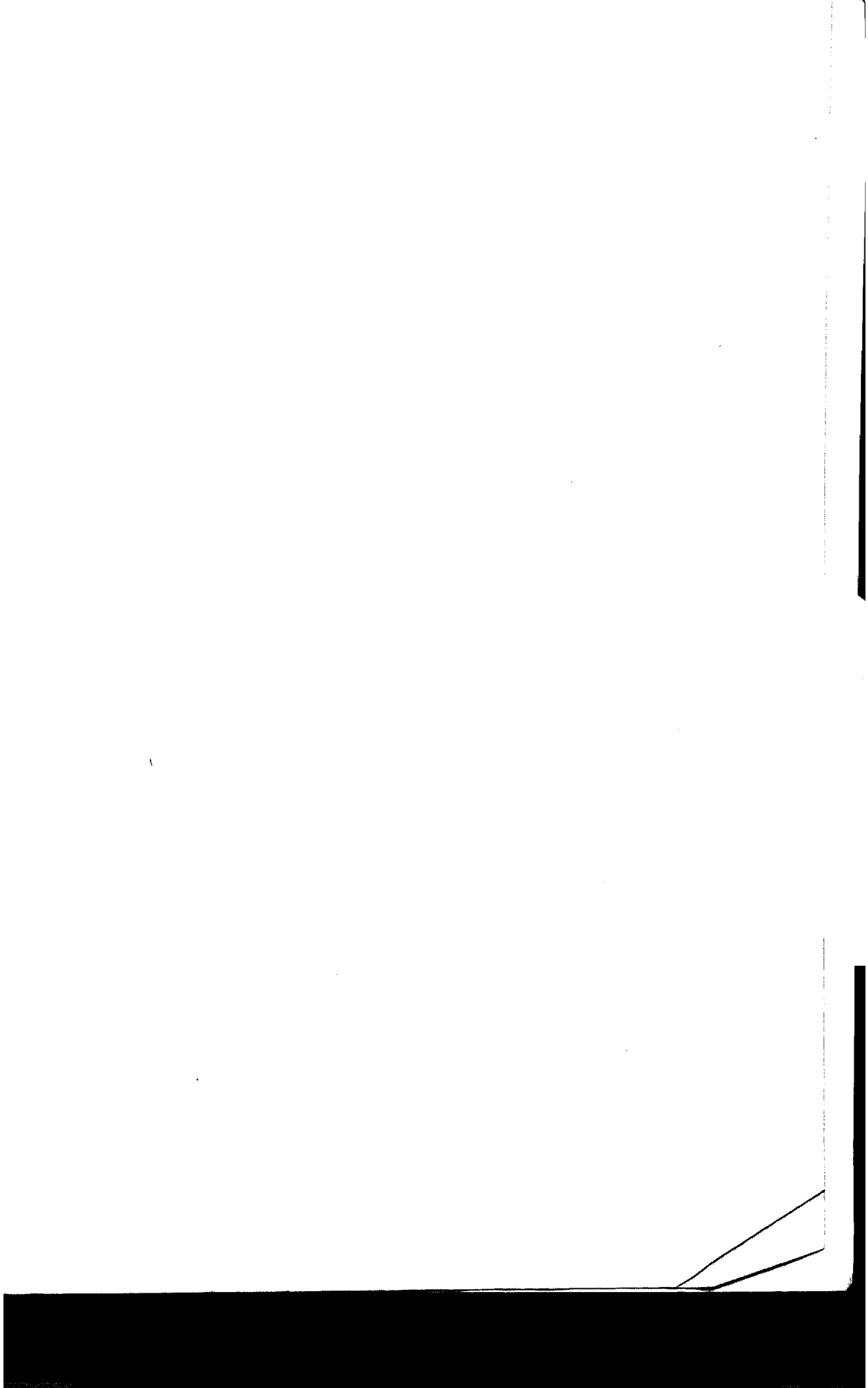

الإسلام

ومكارم الأخلاق

بأقلام عشرة من علماء الإسلام

دار الكتاب العربي

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

جميع الحقوق محفوظة
دار الكاتب العربي

محمد أبو زهرة

الأخلاق .. الأخلاق

قال الله تعالى : « واذا اردنـا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١) .

١ ــ هذا نص صريح قاطع في ان هلاك الامم وضعف شأنها،وانحلال قواها ، انما يكون بالشهوات المتحكمة والاهواء المتردية ، وبسيطرة ذلك على الذيـن يوجهونهـا ، سواء أكانوا مديرين سيطرت عليهم اهواؤهم ، ام كانوا قادة الافكار المسيطرين على الرأي العام ، الذيـن يبثـون فيه الفساد ، ام كانـوا ذوي تقدير دنيوي وجاه لا يستمـد من الفضيلة او الديـن او الخلق الكريم ، بل يستمد مـن النفـوذ الآثم والتضليـل المبثـوث .

ام كانوا من المقلدين لكل مرذول ، ومهمـا تكـن قيادة الفساد وتنوعها ، فـان هؤلاء هم الذيـن يقودون الجماعات الى الهاوية ، ولا يؤدي الى حتفها سلاح مهما كانت قوتـه ، ولا ادوات حرب مهمـا يكن فتكها ، لان كل شيء يسير بالهوى ، لا يجدي ، وكل قوم سيرتهـم شهواتهم ينحدرون ولا يرتفعون .

وفي هذه الآية الكريمة ما يشير الى ان الترف هو الذي يؤدي الى الفسق ، وان الفسق هو الذي يؤدي الى الدمار .

فعلى الذين يعملون لرفع الامة ، ان يتجهوا الى الدعامة التي تقـوم عليها ، وهي قوة النفس وسيطرة الارادة المؤمنة على الاهواء الجامحة .

وانه كلمـا كان الترف المردي كانت القوى المنحلة ، وكلما كانت

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٦ .

الارادة القوية ، والعزيمة الصادقة والاخلاص المنير كـان النصر المبيـن والتأييـد من رب العالمين .

٢ ــ ولا غرابة في ان الترف هو الذي يجعل الاهواء توجه وتحكم وتدفع الى الانحلال ، فتلك حقيقة ثابتة مقررة في علم الاجتماع .

ولعل ابن خلدون المسلم اول من نبه لذلك في مقدمته المشهورة ، فقد قرر فيمـا قرر ان الامـم التي لم يصبهـا الترف ، ولم تحل عزيمتها كثرة الشهوات ، هي الامـة القوية .

ولذلك يرى القوة الشخصية في البادية اكثر منهـا في الحضر ،وكان في الماضي للقوة البدنية مقامها في الحروب ، وسرعـان ما ينتشر البدو اذا تجمعـوا غزاة للحواضر التي تجاورهم .

اما الحضريـون فلا يقفون امامهم ، بل تنهار القوى الحضرية ، امام بأس البادية ، حتى اذا استقروا امدا ، استولـى عليهـم الترف ، وارخت عزائمهم الشهوات ، فصاروا غرضا لمن وراءهم من البادية . وهكـذا يستمر الحال في تلـك الدورة الدائمـة .

وقد يقول قائل من ذوي الافكار التي لا تغوص وراء تعرف الحقائق:

وما لهذا القول وقد اصبح في زماننا هذا ، ان النصر في الحروب ليس بقوة الابدان ، اذ قـد تغير السلاح فصار النصر بالعلم ، وبقـوة الدربة على ما اخترعه ابن الارض من ادوات فتاكة ، وذلك في الحضر لا في البادية .

ونقول في الجواب على ذلك الكلام ، اننـا لا نأخذ من كلام ابن خلـدون الا شيئا واحـدا .

وهو اثر الترف في حل قوى العزيمة ، ثم الاسترخاء الـى الملاذ

والشهوات ، والتطبيق الذي ذكره عن اهل البادية والحضر نأخـذه كمثل موضح او مقرب لأثر الترف في حل العزائم .

وان ذلك لحقيقة مقررة ثابتة تطبق في الجماعات كلها ، سواء أكانت هابطـة في مقامها الفكري ام عالية . وسواء كان السلاح فيهـا سيفـا ام رمحـا . أم كان طائرة تخترق اجواء الفضاء ، ومدافع تـدك الارض دكـا ، وجاريات تمخر عباب البحر .

فان الترف المفسد له اثره في كل الاحوال ، والاعتصام بالديـن ، وبالاخلاق له ثمرته في كل الاحوال .

فاذا سيطر الترف كان الفسق عن امر الله ، وكانت الارادة المنحلة والعزيمة الخائرة ، والجماعات الحائرة والقلوب المتنافـرة ، والطبقات المتنابـذة .

ومهما تكن قوة السلاح ، وكثرة العدد ، فان القـوة المعنويـة هي القوة الدافعة ، لان الاسلحة لا بد ان تكون صادرة عن جماعة مؤتلفـة ، وعن ارادات حازمـة .

ولا يمكن ان تتحرك الاسلحة من تلقاء نفسها ، وتعمـل مـن غير عقول مدركـة وقلوب مجتمعة ، وجماعات متآخية ، لتطمئن النفوس ، وتستقر الاحوال . اذ يعتقـد حامل السلاح ، انه يعمل لجماعة تقدر عمله وتجني ثمراته وتستغلهـا في نفع عام ، لا فـي الشهـوات الجامحة ، والترف المفسد واللهو الباطل .

فالانسان لا يقدم نفسه فداء لجماعته الا من يستوثق بانها ، تنتفع بفدائه ، وتعرف ان فناءه بقاء لها .

ولا يمكن ان يتقدم للفداء من يظـن او يعتقد ان الذين يستمتعون

بثمرة فدائهم ، يلهـون ويلعبون ، ويعيشون في الارض من غير و ا
ديـن او خلق او رأي عام لائم مقوّم مهذب .

٣ ــ وانه مهما يكن من الكلام في اثر الترف الذي اشار اليه
القرآني ، من انه السبب في انحلال الامة ودمارها وذهاب قوتها
بقـي لهـا وجـود .

فمن المؤكد انه مناف لسيادة الاخلاق في الامة ، وانه اذا ف
اخلاقها عزفت عن الترف ، ولم تنل من الملاذ الا مـا تقوى به الـ
وما يكـون سائرا تحت ظل الاخلاق الدينية والاجتماعية ، وكل م
مفيد للجماعة ، بحيث يكـون الرجل مصدر خير لامته عامة ولجـ
خاصة ، وللانسانية في شتى الشعوب والاقاليم .

ولكن كيف تكون الاخلاق كابحة للاهواء مانعة من الترف

لا بد ان نخوض بكلمة موجزة في مقياس الخير والشر في ا
وفي فلسفـة الاخـلاق .

وان من الامور التي يثيرها علماء الفلسفة الخلقية الاجتماعية ،
المقياس الخلقي ، وما الضابط لما هـو خلقي ، وما ليس بخلقي .

فهم يقررون حقيقة ثابتة ، وهو ان الخير حكمه واحد عام ، ف
خير في امة ، هو خير فيمـا عداها . وما هو شر في جماعة هو شر
الجماعـة الاخـرى .

فحكم الخير والفضيلة عام لا يخص اقليمـا ، وهـو في القـ
كذلك . فأحكامه الخلقية والشرعية عامة لا تخص قبيلا دون قبيل .

فالصدق والعدل والحياء ، هي فضائل في كـل زمـان ومـ
والنفاق والكذب والخيانة ، والنميمة والسعايـة بالفساد فـي الار

والقتل والاعتداء بكل ضروبه ـ حكم القرآن انهـا شر فـي كـل بقاع الارض .

وكذلك فالعدالة خير واجب يلزم به المسلم لا فرق بين عدو وولي ، والدلك يقـول سبحانـه :

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » (١) .

٤ ـ وان علمـاء الاخلاق يختلفون بعد ذلك في المقياس الضابط للاخلاق . فمنهم من يقول انه الملذات . فكل ما هو لذيذ طيب خير . وكل ما هـو ليس بطيب شر .

ومنهم من يقول ان كل ما فيه سمو وعلو خير ، وما ليس كذلـك فهـو شر . وهذا مقياس ليس بمضبوط ، الا من قبل النفس والاحساس الروحـي . وهذا يشبه ما عنـد الصوفية .

ومنهم من يقول القياس الضمير والوجدان ، ومنهم من يقول هـو الواجـب وهكذا ...

وهناك مذهب مقرر وهو ان المقياس هو المنفعه لاكبر عدد وبأكبر مقدار . فكل عمل فيه نفع لاكبر عدد وباكبر قدر خير . وكل عمل فيـه مضرة لاكبـر عـدد شر .

ولعل هذا المذهب هو اقرب الآراء لاقوال فقهاء المسلمين . فالغزالي وابن عبدالسلام قررا ان الاحكـام الشرعية باستقرائهـا ، يتبين انهـا جـاءت لمصلحـة الانسـان .

فما يكثر نفعه على ضرره يكون مطلوبا ، وما يكبر ضرره علـى نفعـه يكـون ممنوعـا هذا وتتفاوت المطلوبات في الطلب بقدر الضرر

---

(١) صورة المائدة الآيـة ـ ٨ .

من مكـــروه الى محرم .

٤ ــ ويلاحظ في تقدير المنافع ادومها وان كان قليلا ، فانه يدخل في تقدير الكثرة والقلة مقدار الدوام . فما ينقض سريعا ، وان كان كثيرا خير منه ، ما يكـــون أدوم ، وان كان اقل من السريع . ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« أحب الاعمال ادومها وان قلّ »

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يحب الديمة من الاعمال » .

وان المنفعة العاجلة يقايس بينها وبين المنفعة الآجلـــة ، وقـــد يترك النفع العاجل ، ويقصد النفع الآجل ، ويكون الخير فيه .

فمن يتحمل المشاق لنيل غرض مقصود ، لا ينال الا المشاق ، انمـــا يأخذ بمبدأ المنفعة الآجلة . فكل مشقة تحتمل لغايـــة تكـــون في ذاتهـــا نافعـــة له او لغيره ، يكون من قبيل الاخذ بمبدأ المنفعة الكاملة ، الآجلة التي تقرها الشريعة ، ويقرهـــا المذهب الخلقي السليم .

ومن اجل ذلك ، كانت مشقات الجهاد يفرضها حكم القرآن لسبيل غايـــة سامية ، وهي حمايـــة الدولة ، وتوفير الامن والاطمئنان للامة ، وتحقيـــق منافعهـــا .

وان احتمال مشاق الدنيا ، لما يرجى من نعيم الله في الآخرة .ولقد روي ان المسيح عليه السلام قال :

« طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره » .

٥ ــ مضينا على شاطىء البحوث الخلقية ، وما تنتهي اليه مـــن ان المنافع لاكبر عدد مطلوب ، وهو يتقارب مما تقرره الشريعة في جملة مـــا

استنبطه علمـاؤها ، مقياس صحيح للاخلاق ، والاحكام الشرعية المنزلة .
وانا سقنا هذا الكلام لامرين جوهريين :

اولهما ـ ان اللذات العاجلة التي يدفع اليها الترف المدمر للاخلاق ، يتنافى مع الدين ومع الاخلاق ، التي يقررها علماء الفلسفة الخلقية . وانه لا يمكـن ان تقوم امة ، والترف ينخر في عظامها ، ويدمرها كما قـرر القرآن في محكـم آيـاته .

ثانيهما ـ ان النفع العام مطلوب بحكم الشرع ، وان كل ما يتنافى مـع النفع العام لاكبر عدد يقوض دعائم الاخلاق .

وان الذيـن يقدمون نفوسهم واموالهم ، واقلامهـم ، والسنتهم ، يجب ان يشعروا بانهم يفعلون ذلك لمنفعـة الكافة . وانهم يجب عليهم ان يقومـوا بذلك لاجل الامـة ،لا لأجل شخص معين .

فهم خدام لهذا الشخص ، وان قدموه للامة ، وهم خـدام الحـق والواجب ، وبذلك تسمو نفوسهم ، وتعلو مكانتهم عند الله وعند الناس، وان قدموه لاجل شخص فهم الاذلون ، ولهـم من خلـق العبيد قـرب ، والعزيز من يخدم الحق لذات الحق،لانه عبد لله تعالى ، وليس عبدا لاحد من خلقه . فخدمة الاشخاص ذلة ، وطاعة الله عز ، فلنعتبر ونتدبر .

٦ ـ وننتهي من هذا الى امور ثلاثة نقررها ، ونطبقهـا علـى مـا نحـن فيـه .

اول هذه الامور ان الترف فساد وضد مكارم الاخلاق ، لانه اثرة وانانية . والفضيلة نفع عام وايثار . وان الترف اذا ساد في امـة هـزع اخلاقها ، وتقطع آحادهـا ، وتنابذوا وتفرقوا . لان كلا لا ينظر الا الى نفسه وما يحدهـا ولا يخرج عن دائرتهـا .

وفي الحق انهـا لا تكون امة مجتمعة مؤتلفة ، بل تكون اقطاعـا متدابرة متنابزة . وان الترف وسيطرة الاهـواء والشهوات مزيتان لا ينفصـلان ، وانهمـا معا ، ينجم عنهمـا الفسوق والخروج على امر الله تعالى ، ووراء ذلك النار .وقد قال سبحانه وتعالى :

« فاذا جاءت الطامة الكبرى ،يوم يتذكر الانسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، فامـا من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هـي المأوى واما متى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنـة هـي المأوى . » (١) .

وهل نحـن في مجتمعنا الاسلامي عامة والعربي خاصة ، قد تجنبنا متارف الحياة ولم نأخذ منها الا بمقدار استرواح النفس ؟

الجواب على ذلك نأخذه من حاضر معاين وشاهد قائم .

انظر الى ما يذاع في وسائل الاعلام من صور عاريـات او شبـه عاريات ، ومن لهو عابث ومن مثيرات لاحط الغرائز ، ومن شغل شبابنا وبناتنا بالمغريـات .

لقد كنا نحسبه شرا واحدا وهو الانغماس في الشهوات والدعوة اليها ، والاغراء وتسهيل السبل لملء النفس منها . فاذا مع هذا شر آخر ، وهـو التقليـد من غير تفكير .

ان الشعب المجاهد يجب ان يتحصن بشكائم الاخلاق الفاضلة ، وان يدرع بارادات قوية فعالـة .

وهل يسكن ان يتكون جيش من شعب منحل الارادة سيطر عليـه الهوى ، وشغلته متارف الحياة ؟

---

(١) سورة النازعات الآيـات ٣٤ ـ ٣٨ .

انه لا بد من عزمة صادقة يقوم بها المسؤولون في الدولة ، ليمنعوا ذلك بامر صارم ، ليكون جيش من شعب متحصن العزيمة يريد ما يفعل ويفعل ما يريد .

وقد يقولون ان الامم التي نقلدها في ذلك الترف المغري قوية ، ادرعت بالحديد والسلاح ، فنقول لهم انها ادرعت بالمال والحديد ، ولكنها لم تدرع بالاخلاق الانسانية العالية والعزائم القوية .

ونرى ذلك واضحا في معاركهم . الم تر الى دولة قوية بسالها وسلاحها وكثرة عددها ، وسعة سلطانها ، قد تقف حائرة في معركة يذوب جيشها فيها ذوبان الثلج في مكان حار ، امام طائفة من الناس ،صغيرة في عددها نسبيا ، الا انها مدرعة بارادة وعزيمة ، فتتصدى لتلك الدولة وتحرج موقفها الى حد ما .

٧ ــ الامر الثاني ــ انه لا يمكن تطبيق قانون الاخلاق تطبيقا سليما الا بايمان صادق ، والطاعة لاوامر الله ونواهيه ، وتتخذ الاهبة وتفوض الامور من بعد ذلك لله . فلا بد من طاعة مؤمنة وتنفيذ لاحكام الشرع جملة وتفصيلا ، فهي المتضمنة لاحكام الله تعالى والاخلاق .

فالناس يرون الخير في احكام الله وحكم الاخلاق . وان الواقع في بلادنا انه يتجه بعض العابثين الى ان يجعلوا الدين كأهوائهم ، ويخرجوا القرآن على شهواتهم . وما يوافق هواهم من السنة يتبعونه ، وما يخالفها يردونه ، ويلوون السنتهم ، وتعبث اقلامهم بما يسمونه تطورا .

فهؤلاء خير منهم من لا يتعرض للدين بقليل ولا كثير ، لانهم يريدون الدين على هواهم ، ولا يريدون ان يكون هواهم في ظل الا

كمـــا قال صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه مسبقا لما جئت به » •

٨ ــ الامر الثالث الاستقامة والامانة ، فالامانة ، تولد الثقة ، والثقة تجمع القلوب • والاستقامة تجعل المؤمـــن كالسيف تتكشف عنـــده الظلمـــات •

والاستقامة اساسها الاخلاص • فان الاخلاص يجعل النفس تشرق بالحكمة ، وتنطلق بالحق وتعمل به ، وتكون المعاملة الحسنة مع الناس ، ويكون السلوك المستقيم •

ولقد سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم ان يوصيه بوصية ،وان يقول قولا فيه عصمة امره • فقال عليه السلام :

« قل آمنت بالله واستقم » • فهل سارت على الامانة امورنا التي لا تستقيم الا بالامانات يا ترى ؟ اللهماصلـح امـورنا واهدنا ســواء السبيـــل •

الدكتور محمد يوسف موسى

الدّين والأخلاق

كلاهما يهدف لبيان الخير ويهدي اليه ، ويعنـــــى ببيان الشر وتبغيضه الينا • والاخلاق كما تقول المعاجم والكتب العلمية التي تبحث في هذا الفرع من فروع الفلسفة ، هي مجموعة القواعد التـي بهـا نعمل الخير ونتجنب الشر • او مجموعة قواعد السيرة الطيبة المحمودة التـي يقبلها الناس عامة في كل عصر وزمان •

فاذا كان الامر كذلك ، كان من الطبيعي ان تكون صلة قوية بيـن الدين والاخلاق ، بل كان من الطبيعي ان تكون الاخلاق تابعة للدين ، وهذا حقا ما يعرفه تاريخ الفكر في القديم والحديث •

نرى هذه الصلة الوثيقة فيمـا نعرف من تفكير قـدماء المصريين والهنود والفرس ، وفيما نعرف عن المفكرين اتبـاع الديانات الوحيية : اليهوديـة والمسيحية والاسلام •

ذلك بان الغايـة من الدين وبخاصة ما كان سماويا منـه ، اصلاح الانسان والانسانية وليست الاخلاق الا هذا •

كان المصريون القدامى كما نعرف ،يدينون بحياة اخـرى ، يسـأل فيهـا المرء عمـا عمل في حياته الاولى • فكان من هذا حرصهم على ان يكونوا اخيارا وفي كتاب (الموتى) على ذلك شاهد وشاهد •

ولدى الهنود ، نرى ان عقيدتهم فيخلودالروح والتناسخ ووحدة الوجود ، قد استتبعت اخلاقا تقوم على الاعراض عن الدنيا وطيباتها ، وعلى رياضـة النفس بالزهد والتأمل في عزلة وسكون ، كما تقوم ايضا على حب الناس والكائنـات جميعـا •

وفي فارس موطن دين (زرادشت) الذي يقوم على الاعتقادبالهبن،